الفصل الثاني

الصراع الاجتماعي والسياسي والديني ـ المذاهب الاسلامية

ان التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تبدت بشكل ظاهر في عصر سيطرة الاتراك ، ادت الى نشوء حركات اجتماعيـــة متعددة ، وبروز تيارات دينيـــة مختلفة . فقد بدأ الفساد والانحلال يدب تدريجيا في جسد الخلافة العباسية منذ نهاية الربع الاول من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وبدأت الخلافـة العباسية تفقد سيطرتها على اجزاء كثيرة من امبراطوريتها الواسعة . فأدى ذلك الى حدوث حركات انفصالية وقيام دويلات جديدة [1] . وبالاضافة الى ذلك فان هذا القرن تميز بميزات أخرى منها اهتمام الكثيرين بالزراعة والتجارة ، وبشكل خاص الزراعة الواسعة والتجارة الكبيرة الرابحة . مما نتج عنه قيام طبقة مـن أصحاب الثروات العريضة ، وقيام ملكية زراعية واسعة ، الى جانب طبقة كبيرة جدا من الفقراء [2] .

ونتيجة لهذا التمايز الطبقي الذي ظهر في هذه الفترة ، ونتيجة لكون أصحاب الملكيات الكبيرة اما من الحاشية او من المقربين الى البلاط . فان جباة الضرائب المختلفة كانوا يتغاضون عن جزء أو كل الضرائب المستحقة على كبار الملاك . في

---

(١) ـ انظر فيما سبق .

(٢) ـ فيصل السامر : ثورة الزنج ، ص ٢٦ .

Scanned with CamScanner

حين تعرض صغار الفلاحين الى قسوة هؤلاء الجباة ، فأخذوا يلجئون [٣] اراضيهم الى كبار الملاك كوسيلة للتخلص من قسوة العمال وعبث الجباة [٤] . وبازدياد الملجئين اضطرت الخلافة الى انشاء ديوان للضياع ، ونتج عن ذلك تحول الملجئين الى مستخدمين في الارض بينما اصبح الملجأ اليه مالكا لها [٥] . وهكذا أدى الجاء الاراضي الى كبار الشخصيات مع انتعاش التجارة الى انتشار الملكيات الفردية الواسعة على حساب صغار الفلاحين ، مما دفعهم الى التذمر . وشعر هؤلاء المتذمرون من العرب والفرس بضرورة التكاتف فيما بينهم لمواجهة وضعهم السيىء امام الملاك الذين تعاونوا بدورهم بدافع المصلحة المشتركة .

حين كان الوضع الاقتصادي للخلافة الاسلامية يسير بهذا الاتجاه بدا الضعف على خلفاء العباسيين وتسلط عليهم الاتراك . فقتل اربعة من الخلفاء على أيديهم في خلال تسع سنوات من سنة ٢٤٧ ـ ٢٥٦ هـ / ٨٦٢ ـ ٨٧٠ م . ولم يكن هذا فحسب بل ان الصغار كانوا يسخرون بأعمال الكبار . واذا اضفنا الى ذلك ان القرن الثالث الهجري شهد حركة فكرية واسعة ومتطورة أدت الى تحرير الفكر وشعور الانسان بكرامته وحقه في الحياة الحرة الشريفة ، لادركنا الاسباب التي أدت الى الصراع بين الفئات التي يتألف منها المجتمع . وخاصة وأن المستغلين من العناصر كافة شعروا بضرورة التكاتف فيما بينهم لمواجهة هذه الاوضاع والوقوف بحزم امام كبار الملاك .

١ ـ حركة الزنج : ٢٥٥هـ/ ٨٦٨ ـ ٨٧٠م

أطلق هذا الاسم على الثورة التي قامت في جنوب العراق في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، ودامت مايزيد عن اربع عشرة سنة ، وهي الحركة التي

---

(٣) ـ الالجاء : هو تسجيل صاحب الملكية الصغيرة مايملكه باسم احد كبار الشخصيات على اتفاق بينهما بأخذ جزء من المحصول وذلك نظير حمايته من عبث جباة الخراج .

(٤) ـ محمد عبد الفتاح عليان : قرامطه العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ص ٢٣ .

(٥) ـ الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ١١٨ . ويبدو مما ورد في هذا الكتاب ان قضية الالجاء ليست وليدة عصر سيطرة الاتراك ، بل وجدت منذ عصر الخليفة المنصور .

Scanned with CamScanner

قام بها جماعة من الزنوج [٦] كانوا يكسحون السباخ في الاراضي قرب البصرة . كان هؤلاء ملكا لأصحاب هذه الاراضي يعملون في الارض فيعزقونها ويرفعون عنها الطبقة المالحة ليصلوا الى الارض الخالية من الاملاح الصالحة للزراعة . وكان هذا العمل شاقا ، والمعيشة العامة لهؤلاء متدنية . فهم لا يتقاضون اجرا عن عملهم ويقتاتون بقليل من الدقيق والتمر والسويق ، وبالتالي فانهم كانوا مستعدين لتلبية دعاة التحرر الاجتماعي [٧] .

لقد سلطت الاضواء على هذه الثورة التي هددت أمن المنطقة من قبل المؤرخين على انتماءاتهم كافة ، وعلى الرغم من كل الدراسات المقدمة في هذا المجال ، فان الدارسين لم يصلوا الى حقائق ثابتة عن معتقدات صاحب الزنج . وما يذكر في هذا المجال هو أن علي بن محمد صاحب الزنج وهو من اهالي الطالقان . تمكن من استغلال الظروف الاقتصادية والاجتماعية الى حد كبير فادعى أنه من ولد علي زين العابدين ، كما ادعى ادعاءات أخرى ليثبت مركزه ويزيد في عدد انصاره . فهو الى جانب ادعائه النسب العلوي ، قد تمسك بالمبادىء الديموقراطية الخارجية اعتقادا منه انها تلائم اتجاهات المساواة والديموقراطية التي يتطلع اليها العديد من افراد الطبقة الدنيا . وفوق كل ذلك فانه ادعى علم الغيب ، وانتحل النبوة . وزعم ان له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه [٨] ، وبالتالي فانه تمكن من ان يضم اليه هؤلاء الزنوج . بالاضافة الى العبيد الفارين من القرى والمدن المجاورة تخلصا من سوء حالتهم [٩] .

بدأ علي بن محمد يدعو لنفسه بين الفئات الفقيرة . فتنقل في بداية الامر بين أهالي هجر والبحرين والعراق واقام سنة في بغداد . ثم استقر به المقام اخيرا في البصرة سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م حيث نزل في بني ضبيعة ، فاتبعه جماعة كبيرة منهم ،

---

(٦) ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٤١٠ .

(٧) ـ الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٨) ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ص ١٧٦ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٠٧

(٩) ـ الدوري : المرجع السابق ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

Scanned with CamScanner

الا ان قوة والي البصرة محمد بن رجاء الحضاري في ذلك الوقت أجبرته على ترك البصرة ، فالتجأ الى بغداد ، ولكنه لم يكف عن دعوته . وساعدته الظروف بالعودة الى البصرة بعد سنة من خروجه منها ، وذلك بعد عزل ابن رجاء ، ونشوب ثورة فيها . وحين دخلها أخذ يدعو الى نفسه بين الفئات المستضعفة ، ويعدهم التحرر، فالتف حوله عدد من المظلومين ، ادعى فيهم بأنه ملهم ، وانه تتنزل عليه الآيات ، ويبدو انه كان يبث اعوانه بين هذه الفئات ليعلم اخبارهم . ثم يسردها لهم مدعيا الغيب . وقد أخذ نجمه يلمع منذ ان استطاع استمالة بعض غلمان البصرة الذين اقبلوا عليه لمبادئه في تحرير العبيد والفقراء ، فوعدهم بأن يقودهم ويملكهم الاموال اذا وقفوا الى جانبه وقفة قوية حازمة . وحلف لهم الايمان بأن لا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الاحسان الا أتى به اليهم [١٠] وقد نفذ وعوده حين سمح لهؤلاء بضرب سادتهم الذين جاؤوا لمفاوضة صاحب الزنج لردهم [١١]، مقابل خمسة دنانير عن كل منهم [١٢] .

كانت حركة صاحب الزنج في بادىء الامر حركة ضد كبار الملاك ، ثم تطورت فصارت حركة ضد الدولة . لان الخلفاء والولاة ظالمون ينتهكون حرمة الله [١٣] . فسمح صاحب الزنج لرجاله القيام بسلب السلاح والاموال لاستخدامها في قتال اعدائهم ، وان من يأسر رجلا يصبح عبدا له ،وبذلك تحولت جموع هؤلاء الى قوى مسلحة ، واستطاعوا ــ بما بذلوا من جهد وبما قدموا من تضحيات ــ الانتصار على جيوش الخلافة العباسية . وتملكوا الابلة وعبادان والاهواز ثم البصرة وواسط والنعمانية ورامهرمز ، كما انهم اغتنوا ماليا . واصبح هؤلاء الزنوج يملكون البيض من السادة . وقد جاء في المسعودي [١٤] ان صاحب الزنج كان ينادي على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر

---

(١٠) ــ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩

(١١) ــ حسن ابراهيم حسن التاريخ السياسي ، جزء ٣ ، ص ٢١٠ نقلا عن نولدكه .

(١٢) ــ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٠٩

(١٣) ــ احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٧٠

(١٤) ــ مروج الذهب : جزء ٤ ، ص ٣٠٨ .

Scanned with CamScanner

العرب ، وابناء الناس ، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة ، وينادي عليها بنسبها • هذه ابنة فلان الفلاني ، لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون ، يطؤهن الزنج ، ويخدمن الزنجيات كما تخدم الوصائف • ولقد استغاثت الى علي ابن محمد امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه • فقال هو مولاك وأولى بك من غيره •

وهكذا انقلب الوضع في هذه الفترة وعاش الزنج عيشة كريمة عزيزة ، بينما لم تدع هجمات الزنج لاهالي البصرة مايعيشون منه • ووقع الرعب في نفوسهم ، وقتل منهم اعداد كبيرة • واستخفى من سلم من أهل البصرة في آبار الدور• فكانوا يظهرون ليلا ، ويطلبون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، ويأكلون الفئران والسنانير ، وصار اذا مات الواحد منهم أكلوه [١٥] •

دامت هذه الثورة أربع عشرة سنة نشب خلالها قتال مرير بين صاحب الزنج وجيوش الخلافة العباسية ، التي ارسلت الجيوش لمتابعة قمع هذه الحركة التي هددت طرق التجارة بين بغداد والجنوب ، وأفسدت الزراعة وأضعفت الاقتصاد •

وقد وضع الخليفة المعتمد على الله في يد أخيه الموفق كل امكانيات الخلافة ليعد الجيوش على النحو الذي يريده • فبنى الموفق قلعة تواجه مدينة المختارة التي كان صاحب الزنج قد اتخذها عاصمة له ، واقام كل فريق يرابط ضد الفريق الآخر • وفي آخر الامر كانت الغلبة للجيش العباسي الذي أباد الزنج قتلا وأسرا • وقتل صاحب الزنج ودمرت مدينته ، وانتهت هذه الحركة بعد ان ذهب ضحيتها مليونان ونصف من الفريقين في رواية ابن طباطبا [١٦] ومليون ونصف في رواية السيوطي •

---

(١٥) ـ احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ١٣٥

(١٦) ـ المصدر السابق ، ص ٢٥١

Scanned with CamScanner

٢ ـ حركة القرامطة :

آ ـ ظهور قرامطة العراق والشام :

اختلف المؤرخون في نشأة هذه الحركة وموطن انطلاقها الاول • كما اختلفوا حول مؤسسها ، ومتى كانت • ومايعرف عنهم هو أنهم طائفة من طوائف الاسماعيلية • دانوا بالمذهب على يد دعاة المذهب الاسماعيلي (١٧) • ولم يجتمع رأي المؤرخين حول هذه التسمية • ويذكر الطبري عن ظهور القرامطة ، ان ابتداء أمرهم كان على يد رجل قدم من بلدة خوزستان انى سواد الكوفة • ونزل في موضع يقال له النهرين ، وانه عرف باسم كرميته لاسباب يختلف حولها المؤرخون• وهنا تظاهر بالزهد والورع والتقشف ، وحدث اصحابه عن ذلك وعن الصلاة وفرائضها • ثم اعلمهم بانه يدعو الى امام من أهل البيت • فالتف حوله جمع كبير من الناس ، اتخذ منهم اثنى عشر نقيبا ، أمرهم ان يدعوا الناس الى دينهم (١٨) • وقد استدعى نشاطه هذا انتباه رجل اسمه الهيصم ، من كبار الملاك • فسعى الى القضاء على الحركه في المهد ، ففشل • وفي هذه الآونة كانت ثورة الزنج قائمة نشيطة في منطقة البصرة ، فذهب قرمط الى صاحب الزنج فناظره • ولما وجد آراءه تختلف عن آرائه ، تركه وانصرف • ويقال بأنه خرج الى الشام فلم يعرف له خبر (١٩) .

واذا اردنا ان نحلل اسباب ظهور القرامطة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي لوجدناها متشابهة مع اسباب قيا محركة الزنج ، وتعود الى سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في المنطقة .

استغل حسدان قرمط الفئات المتضررة من سوء الاوضاع غاية الاستغلال ،

---

(١٧) ـ انظر حول ذلك دي خويه : القرامطة نشأتهم دولتهم وعلاقاتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق حسني زينة ، ص ١٥ ـ ٣٠

(١٨) ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٣ ـ ٢٤

(١٩) ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٤ ـ ٢٥

Scanned with CamScanner

ونادى بمبادىء تقبلتها . قام أول الامر بنشر الدعوة الاسماعيلية في سواد العراق، واعتمد على صهره عبدان الذي كان من أكبر من نشر الدعوة . وصادفت الدعوة الاسماعيلية على يد عبدان كثيرا من النجاح . حتى ان أبا سعيد الجنابي مؤسس دولة القرامطة في البحرين وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة شمالي غربي بلاد العراق وبادية السماوة قد أخذا عنه (٢٠) .

وقد حدث صراع بين زعماء القرامطة في العراق حول رئاسة الطائفة بعد حمدان قرمط . فعلى حين كان عبدان عقل القرامطة المفكر ، كان آل زكرويه يشعرون بأصالتهم في الدعوة وانتهت المنافسة لصالح زكرويه وقُتل عبدان (٢١) .

تلقى القرامطة في اثناء رئاسة زكرويه ضربات متتالية من الخلافة العباسية في العراق منها تلك الضربة التي وجهت اليهم في نواحي الكوفة سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ / م (٢٢) . وعلى الرغم من ذلك فلم يكف القرامطة عن نشاطهم ، وزاد انتشارهم بشكل واضح في سواد الكوفة . الا ان الخليفة المعتضد كان قد وطد عزمه على استئصال شأفتهم في هذه المنطقة . فوجه اليهم عدة حملات تمكنت من قتل اعداد كبيرة منهم .

فكر زكرويه بن مهرويه بتوجيه نشاط القرامطة الى بلاد الشام ليوسع منطقة دعوته وليضم عناصر جديدة اليها ، مستفيدا من التفكك السياسي فيها . ولمعرفة أهالي الشام بالدعوة الاسماعيلية التي كانت قد تسربت اليهم بشكل عام من سلمية ولحمل المهدي على الموافقة على توليتهم (آل زكرويه) لرئاسة الدعوة (٢٣) .

اسند القرامطة في الشام رئاستهم في بادىء الامر الى يحيى بن زكرويه المعروف (بالشيخ) . فأخذ يدعو الى محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ،

---

(٢٠) ـ دي خويه : المرجع السابق ، ص ٣٦ نقلا عن ابن حوقل المسالك والممالك ، ص ٢١٠

(٢١) ـ هناك اسباب اخرى يذكرها دي خويه عن سبب مقتل عبدان انظرها في المرجع السابق ،ص٥٧

(٢٢) ـ محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ص ٨٩ـ٩٠

(٢٣) ـ عليان : المرجع السابق ، ص ٨٧

Scanned with CamScanner

وتظاهر بالقدرة على اتيان المعجزات • وقد استغوت ادعاءاته بني العليص فخذ من كلب (٢٤) ، وكذلك جماعات كثيرة بجوار دمشق (٢٥) •

اشتد أمر القرامطة بعهده في بادية الشام ، وأخذوا يفسدون في المناطق والقرى التي حولهم فنهضت القوى الاسلامية المسؤولة للدفاع عن الشام كالطولونيون وولاتهم ففشلوا في ذلك على الرغم من قتلهم ليحيى زعيم القرامطة على أبواب دمشق • ثم تولى الخليفة المكتفي هذا الامر ، وارسل الجيوش الواحد تلو الآخر حتى تمكن من الانتصار على القرامطة (٢٦) • فأسر اعدادا كبيرة منهم ، كما أسر الحسين بن زكرويه ، وفر من بقي الى البادية (٢٧) • وعلى هذا الشكل ضعف أمر القرامطة في الشام لقتل اكثر زعمائهم واستئمان البعض الآخر • الا أن زكرويه الذي كان مختبئا ، واصل تحركه ضد العباسيين وبعث بدعاته الى بلاد الشام ثانية • حيث تركزوا في صحراء السماوة ، وهاجموا مدن الاردن ونهبوا هيت على الفرات ، وهاجموا الكوفة ، ونهبوا قوافل الحجاج وفتكوا فيها • واستمروا في نشر الذعر والرعب بين السكان حتى سنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م حيث قضت عليهم جيوش العباسيين (٢٨) •

---

(٢٤) ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٣٥ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٦ ـ ١٠٤ ـ العيون والحدائق ، جزء ٤ ، قسم اول ، ص ١٠٨

(٢٥) ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٠٤
عليان : المرجع السابق ، ص ٩٤

(٢٦) ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١١١

(٢٧) ـ ثابت بن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ٧٦

(٢٨) ـ انظر عن ذلك المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٣٧٣ وما بعدها ـ عريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ١٠ وما بعدها ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ ومابعدها ـ ثابت ابن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ٢٦ـ٢٧ـ٢٨ و ص ٨١ ـ عليان : المرجع السابق ، ص ٩٩ وما بعدها ـ عارف تامر : القرامطة أصلهم نشأتهم تاريخهم حروبهم ، ص ١٠٥ وما بعدها .

Scanned with CamScanner

ب ـ قرامطة البحرين :

كان ابتداء امر القرامطة في البحرين ان رجلا يعرف بيحيى بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف (علي بن المعلى) ، فأظهر له يحيى انه رسول المهدى، وذكر انه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى أمره ، وأن ظهوره قد قرب . فأخبر علي بن المعلى الشيعة من اهل القطيف بالامر ، وقرأ عليهم الكتاب الذي مع يحيى ، فأجابوه واعلموه بأنهم خارجون معه اذا ظهر أمره . ووجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فأجابوه . وكان فيمن أجابه ابو سعيد الجنابي (الحسن بن بهرام) الذي تسلم رئاسة الدعوة ، وأخذ يعمل على نشرها بالبحرين [٢٩] منذ سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م . وقد وجدت تعاليمه مرعى خصيبا لدى الاهالي ، وعلى الاخص الاعراب الذين كانوا دائما على استعداد للانضمام الى أي حركة ثورية مادامت تبيح لهم فرصة السلب والنهب . واتخذ الجنابي مدينة الاحساء عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التي اسسها سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م . واستطاعت هذه الدولة القرمطية من بسط سلطانها على كثير من ارجاء جزيرة العرب . ففتح اليمامة وتطاول الى عمان ولما طمع بدخول مدينة البصرة اصطدم مع قوات الخليفة العباسي المعتمد سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م وانتصر عليها . كان الحكم وراثيا في أسرة أبي سعيد يعاونه مجلس يتكون من اثنى عشر عضوا [٣٠] . كما وضع أبو سعيد نظاما حربيا دقيقا لدولته استطاع بمقتضاه اعداد جيش قوي من رعاياه . فقد جمع الاطفال في دور خاصة ، وعين لهم جماعة تشرف على مصالحهم . وأجرى عليهم مايحتاجون اليه وأخذ يدربهم على ركوب الخيل ، واستخدام الاسلحة الحربية فنشأوا نشأة عسكرية .

اصطدم أبو سعيد نتيجة لمطامعه التوسعية في جزيرة العرب وغيرها مع خلفاء العباسيين وجرت بينهما حروب متعددة تمكن أبو سعيد اثرها من بسط

---

(٢٩) ـ دي خويه : المرجع السابق ، ص ٤٠ ومابعدها .

(٣٠) ـ سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ٣١

Scanned with CamScanner

نفوذه على معظم أرجاء جزيرة العرب (٣١) . ومالبث أن اغتيل سنة / ٣٠٢ هـ على يد خادم له كان قد ضمه الى جيشه من الجيش العباسي بعد ان وثق به . وخلفه ابنه سعيد الذي ظل يدير أمور دولة القرامطة حتى ثورة ابي طاهر سليمان أخيه الاصغر الذي قتله ، وتقلد زمام الحكم في دولة القرامطة . حصل أبو طاهر على كتاب توليته من عبيد الله المهدى ، مما يثبت لنا ولاء القرامطة في البحرين للخلافة الفاطمية ببلاد المغرب . ويزيد هذا الامر رسوخا ، اتحاد الطرفين في سياسة العداء ازاء العباسيين . فقد عمل ابو طاهر على اشغال العباسيين في الشرق بحملاته التي وجهها الى بلادهم ، حتى يتيح للمهدي توطيد نفوذه في المغرب . فهاجم البصرة والكوفة مرات متعددة ، وكاد في سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م ان يدخل بغداد (٣٢) . كما انه قام في العام التالي بحملة جريئة فأغار على مكة في ذى الحجة سنة ٣١٧ هـ في عدد من اصحابه ، وغايته اظهار الخليفة العباسي بمظهر العاجز عن حماية الاماكن المقدسة . فنهب الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام ، كما انه قلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الاسود ، وأخذ كسوة الكعبة ففرقها بين اصحابه . ونهب دور أهل مكة وخطب للمهدي . وفرض على الحجاج اتاوة يؤدونها اليه مقابل حمايتهم . ثم عاد الى الاحساء حاملا معه الحجر الاسود (٣٣).

حافظ القرامطة طوال النصف الاول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على علاقتهم الودية مع الفاطميين في بلاد المغرب . وكان تعيين أمراء القرامطة يتم بعد موافقة الخليفة الفاطمي . وكان لتعاون القرامطة والفاطميين في نشر آراء المذهب الاسماعيلي أكبر الاثر في صعود نجم العلويين بالقرن الرابع الهجري . على حين بدأ أمر العباسيين بالضعف . وبسط الفاطميون سلطانهم على مصر والشام وكثير من انحاء جزيرة العرب .

---

(٣١) ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ٢١٨

(٣٢) ـ المقريزي : المصدر السابق ، ص ٢٤٢

(٣٣) ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٩ ـ سرور : النفوذ الفاطمي ، ص ٣٥ نقلا عن ابن الاثير .

Scanned with CamScanner

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري حدث نزاع بين أفراد اسرة أبي طاهر على العرش ، فقبض سابور بن ابي طاهر على عمه أحمد بن أبي سعيد الملقب بأبي المنصور سنة ٣٥٨ هـ وسجنه . غير انه مالبث ان خرج من اعتقاله وقتل سابور ونفى اخوته واشياعه الى جزيرة أوال ، وانقسم القرامطة بسبب ذلك الى فريقين احدهما بزعامة بيت ابي طاهر ، وثانيهما بزعامة بيت أحمد بن أبي سعيد وعلى رأسه ابنه الحسن الملقب بالاعصم الذي آلت اليه امارة البحرين بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٩ هـ (٣٤) .

اتبع الحسن بن احمد الاعصم سياسة جديدة ازاء الفاطميين تخالف سياسة من سبقه من أمراء القرامطة الذين كانوا يحرصون على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الخلفاء الفاطميين . فلم يعترض اثناء وجوده في مكة على اقامة الخطبة للخليفة العباسي المطيع . ولم يلبث أن اصبح محاربا للفاطميين وراغبا في القضاء عليهم . فطالب الفاطميين بالاتاوة التي كان يدفعها الاخشيديون للقرامطة في الشام فرفض القائد الفاطمي أداءها اليه ، واسفر ذلك عن وقوع صدامات مسلحة بين الفاطميين والقرامطة . وأضاف الاعصم بحذف اسم المعز من الخطبة في بلاد البحرين واقامها للخليفة العباسي المطيع (٣٥) .

واذا كان الخليفة العباسي قد رفض مخالفة الحسن الاعصم وجماعته القرامطة ، لانهم في رأيه ملاحدة خارجون على الاسلام (٣٦) فان بني بويه المتسلطين على الحكم في بغداد امدوهم بالاموال ، كما قدم الحمدانيون لهم الحديد والمال (٣٧) .

قامت الخلافات الداخلية بين قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن بن أحمد ، سنة ٣٦٧ هـ وانكر قسم كبير سياسة القرامطة المعادية للفاطميين . وعمل

---

(٣٤) ـ سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٤٨

(٣٥) ـ سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٤٩ ـ ٥٠

(٣٦) ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٩

(٣٧) ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٣١ ـ ١٣٢

Scanned with CamScanner

اتباع ابي طاهر على اقصاء ولد ابي سعيد عن الامارة ، ثم استقر الرأي على أن يتولى الحكم في بلاد البحرين اثنان من سادتهم ، وهما جعفر ، واسحق ، فأعادا ثانية الدعوة الفاطمية ، وأخذا في محاربة بني العباس ، ولكنهم انهزموا على يد صمصام الدولة أمير بني بويه في سنة ٣٧٥ هـ واخرجوا من العراق .

ضعف أمر القرامطة منذ اواخر القرن الرابع الهجري حتى لم يبق لهم الا ولاية صغيرة على الشاطىء الشرقي للجزيرة العربية ، لا تستطيع قطع الطريق على الحجاج ، وأدى التنافس بين ساداتها الى التعجيل باضمحلال دولة قرامطة البحرين وزوالها في نهاية القرن الرابع الهجري .

جـ ـ الوضع الاجتماعي عند القرامطة :

ذكر ابن الجوزي [٣٨] نصا اوضح فيه الفئات التي دخلت في الدعوة القرمطية فذكر ان هذه الفئات اما ان تكون من ضعفاء العقول والبصائر الذين غلبت عليهم البلادة والبله ، ولم يأخذوا شيئا من العلوم . وأما ان يكونوا من ملاحدة الثنوية الذين اعتقدوا ان الشرائع ليست الا معجزات أتى بها الانبياء فاذا رأوا من يعطيهم شيئا من اغراضهم مالوا اليه . ويذكر من هؤلاء الاكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس . ويرى ان انضمامهم الى القرامطة كان بسبب الحقد الذي يسكن في صدورهم .

سار القرامطه في تعميق نفوذهم في المناطق التابعة لهم على سياسة فرق تسد فاستغلوا الاوضاع الاجتماعية ، واعتمدوا على الطبقة الفقيرة الحاقدة ، وأثاروها ضد الاثرياء . وأدى ذلك الى حدوث اضرابات في بادية السماوة وفي مناطق اخرى في الشام . فحمل موالي بني العليص على اسيادهم فقتلوا جماعة منهم وأذلوهم [٣٩] . وتمكن القرامطة بذلك من التأثير بشكل كبير على الحياة الاجتماعية في بلاد الشام .

---

(٣٨) ـ عليان : المصدر السابق ، ص ٩٢ نقلا عن ابن الجوزي

(٣٩) ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ـ ص ٩٥

Scanned with CamScanner

رتب القرامطة نظاما ماليا اشتراكيا ساعد على نجاح هذه الحركة • فكان من مبادىء القرامطة ان يؤدي افرادها ضرائب محددة عينية في كل سنة • ثم يدفع هؤلاء خمس ماكانوا يملكون او يكسبون (٤٠) ويبدو أنهم تنازلوا عن خمس مايملكون ثم دفعوا خمس مايكسبون ، ويقال بأن اهل القرى كانوا يحملون مايملكون فاذا جمع جعل مشاعا بين الاعضاء ، وتولى توزيعه رجل من بينهم يثقون به • اذ أوضح قرمط لاصحابه انهم لاحاجة بهم الى الاموال ، لان الارض بأسرها ستكون لهم (٤١) •

كان القرامطة لايقرون بوجود طبقات متميزة واخرى محرومة في المجتمع ، فأفراد اسرة ابي طاهر الجنابي لم يكونوا يمتازون عن غيرهم من الوزراء أو أعضاء المجلس الاداري المعروف عندهم بالعقدانية الا في قيادة الجيش ورئاسة مجلس الوزراء ، والاشراف على بعض الاعمال الثانوية مما كانت تقتضيه ضرورة التنظيم وحسن الادارة • وكانت السلطات من تشريع وادارة وتنفيذ محصورة في اعضاء مجلس العقدانية المؤلف من ستة افراد يختارهم الشعب • وكان لهؤلاء وكلاء يساعدونهم وينوبون عنهم •

اما عن ملكية الارض فلا تتوفر معلومات عما آلت اليه • ومن المرجح ان القرامطة لم يلجأوا الى نزع الاراضي من أيدي أصحابها • وكان هؤلاء يقرضون صاحب كل حرفة مايحتاجه من المال حتى يشتغل ، ويجمع من المال مايكفيه ويكفي اسرته • كما كانت الحكومة تقدم المساعدات لمن تحل بهم مصيبة او كارثة • وقد ضرب القرامطة نقودا خاصة بهم في البحرين من الرصاص لم تكن متداولة الا في منطقتهم ، ومن المرجح انها سكت من الرصاص كي لايطمع احد بجمعها واخراجها•

---

(٤٠) ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥
ـ دي خويه : القرامطة نشأتهم دولتهم وعلاقاتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق حسني زينة ، ص ٣٤ ـ ٣٥ •

(٤١) ـ النويري : نهاية الارب ، جزء ٢٣ ، ورقة ٦٩ •
ـ دي خويه : المرجع السابق ، ص ٣٥

Scanned with CamScanner

وقد اسهمت المرأة في المجتمع القرمطي في تحمل الاعباء المالية التي يتطلبها بناء المجتمع ، وادت الضرائب مع الرجل • وكما قدم الرجل خمس مايملكه قدمت المرأة خمس ماتغزل (٤٢) ، وحين يدعو الامر للتبرع تسارع النسوة بتقديم مايملكنه من حلي ومتاع ، وما يحصلن عليه ويتكسبنه من الاشتغال بالغزل (٤٣) • ويبدو ان المرأة اخذت حقها في التنظيم القرمطي واخذت حريتها كاملة ، ولا رقيب عليها غير المصلحة العامة • وبالتالي نجد ان ماقيل عن الاباحية في التنظيم القرمطي لايمكن الاخذ به (٤٤) لما تمتعت به المرأة من احترام في ذلك المجتمع ولما عرف عن قوة الرابطة الزوجية • ومن اهم ماجاء عن المرأة في قوانين القرامطة تحديد الزواج بواحدة ، والغاء المهر ، وحق المرأة في العمل ، وفي التعليم ، وفي الطلاق ، وفي رفض الزواج بتاتا ، واعفاء المرأة من الاعمال الشاقة ، ومنها طحن الحبوب ، واستخدام القرامطة كتعويض لذلك مطاحن تدور بقوة الماء جعلت مجانية ، وذلك لتخفيف الاعباء عن النساء •

وهكذا فانه من خلال دراستنا للحياة الاجتماعية في المجتمع القرمطي ندرك بأن حياة القرامطة في هذا المجال كانت متقدمة ؛ ويبدو كما اوضح الدكتور الدوري في كتابه تاريخ العراق الاقتصادي ان هذا التقدم الاجتماعي كان على حساب الجانب الديني • ويبدو ان القرامطة اعتبروا ان الدين قضية اجتماعية تهدف الى تحقيق العدالة للمجتمع الذي له الحق ان يمارس طقوسه الدينية كيفما اراد • ويبدو ان الخلاف الذي قام بين الفاطميين والقرامطة كان نتيجة للتطرف المادي للحركة القرمطية ، وبقاء الدعوة الاسماعيلية دعوة روحية •

٣ ــ التيارات السنية والشيعية :

برز في هذا العصر التمايز بين المذاهب الدينية المختلفة من سنية وشيعية ،

---

(٤٢) ــ ثابت بن سنان : اخبار القرامطة ، ص ٩٩
ــ دي خويه : المرجع السابق ، ص ٣٥
(٤٣) ــ النويري : نهاية الارب ، جزء ٢٣ ، ص ٥٨ .
(٤٤) ــ دي خويه : المرجع السابق ، ص ٣٦

Scanned with CamScanner